الفصل السادس عشر

علم اللغـــة

فتح القرن الرابع الهجرى فتحاً جديداً فى كل من الناحيتين الرئيسيتين لعلوم اللغة العربية ، وهما : النحو ، وعمل المعاجم . وقد تخلص علم اللغة ، كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية ؛ ويصف السيوطى طريقة علماء اللغة المتقدمين فى تعليمهم فيقول : « وظائف الحافظ فى اللغة أربعة ، أحدُها — وهى العليا — الإملاء ، كما أن الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء ... وطريقتهم فى الإملاء كطريقة المحدّثين سواء : يكتب المستملى أوّل القائمة : مجلسٌ أملاه شيخنا فلان بجامع كذا فى يوم كذا ، ويذكر التاريخ ؛ ثم يورد المملى بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريبٌ يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره ؛ وقد كان هذا فى العصر الأول فاشياً كثيراً ، ثم مات الحفاظ وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد واستمرّ إملاء الحديث ... وآخر من عَلِمْتُه أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجى ، له أمالٍ كثيرة فى مجلد ضخم ؛ وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، ولم أقف على أمالٍ لأحد بعده »[1] .

كان هؤلاء العلماء المتقدمون يضعون معارفهم بعضها إلى جانب بعض ، مفككة لا رباط بينها ، وكان اهتمامهم ينْصَبّ على الجزئيات : على حادثة

---

(١) المزهر السيوطى ج ٢ ص ١٩٩ من طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

واحدة ، أو صورة من صور التعبير واحدة ، أو كلمة واحدة ، كما نجد ذلك فى كتاب المبرّد (المتوفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨ م) ، وفى كتاب القالى (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م) وفى كتب مؤلفة من جميع اللغة ومن القصص والتاريخ ، وكان أبو عمر محمد بن عبد الواحد اللغوى المعروف بغلام ثعلب (توفى سنة ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م) يجعل كلامه بحسب أسئلة الحاضرين فمثلاً كان يسأله بعضهم : أيها الشيخ ما القنطرة عند العرب[1] ؟ .

أما أئمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى فقد شعروا بالحاجة إلى منهج يسيرون عليه ، وإلى تناول مادة بحثهم على طريقة منظمة . وقد كان لمعرفة العرب بعلوم اليونان السانية أثرٌ كبير فى ذلك . وكان البحث يدور فى مجلس عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م) حول الفرق بين النحو العربى والنحو اليونانى ، وأصل استنباطهما ؛ وقد ميز أبو سليمان السجستانى النزعة الجديدة فى النحو بأن قال : نحوُ العرب فِطرةٌ ، ونحونا فِطْنَةٌ[2] » . وإذا وجدنا ابن فارس (المتوفى عام ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م) يؤلف لأول مرة « مقدمة فى النحو » فينبغى ألا نرى فى هذا سوى وليد للمقدمات (إيساغوجى) التى كتبها علماء اللغة اليونان .

وأكبر ما تم على أيدى علماء اللغة هو تحديدُ معانى الكلمات وعملُ المعاجم ؛ ونجد هنا حداً واضحاً يفصل بين عهدين وطريقتين ؛ وكان حمزة الأصفهانى (المتوفى بين ٣٥٠ ، ٣٦٠ هـ = ٩٦١ ، ٩٧٠ م) خاتمة اللغويين القدماء الذين كانت كتبهم لا تشتمل إلا على عبارات الخطباء والبلغاء ، والذين ألفوا كتباً من الترادف وأخرى يستعين بها الخطباء فى الخطابة ؛ ففى كتاب الموازنة مثلا ذكر أربعمائة

---

(١) المنتظم ص ٥ ، ١٢٨ ، وليس فى النص ما يدل على أن هذه كانت مدينة . (المترجم)

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ، ٢٨١ ، الطبعة الأوربية .

كلمة فى معنى « الشق » ، وكذلك جمع فى كتاب الأمثال أكثر ما يعرض فى لغة الخطباء من عبارات المفاضلة من نحو أبيض من الثلج وأجشع من الفيل ، وقد كان جَمْعُه وافياً ، بحيث لم يضف علماء القرون التالية شيئاً إليها ؛ وكان سَلَفُه قد جمع من هذه العبارات ثلثمائة وتسعين فجمع هو ألفا وثمانمائة ، ولم يفعل الميدانى (المتوفى عام ٥١٨ هـ — ١١٢٤ م) أكثر من نقل ما كتبه حمزة ، واستطاع أن يزيد على كل فصل مثلا واحداً أو مثلين أو أربعة على الأكثر . وكذلك أخذ الميدانى كل الشروح عن سلفه[١] . وفيما يتعلق بالأمثال الخالصة نجد أن أكبر كتاب هو الذى ألفه فى القرن الرابع الحسن العسكرى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م) .

على أن المدرسة الجديدة أظهرت بعد جيل ما كانت تُعنى ، ويتجلى ذلك فى كتاب الصحاح للجوهرى (المتوفى عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠١ م) . وتدل كل مقارنة لهذا المعجم بالمعجم الكبير الذى ألفه ابن دريد (المتوفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م) على مقدار التقدم فى المنهج وفى الوضوح . ويقول ابن فارس المتوفى (عام ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م) فى مقدمة معجمه المسمى بالمجمل : « والمقصود من كتابنا هذا من أوله إلى آخره التقريب والإبانة عما ائتلف من حروف العربية فكان كلاما[٢] » ؛ وكان شأن الجوهرى عظيما حتى إن الكتب الكثيرة أُلفت فى الطعن فيه والدفاع عنه[٣] ، بل نجد (السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ — ١٥٠٥ م) قد ألف بمكة فى الدفاع عن الجوهرى كتاب « الفظ الجوهرى ؛ فى رد خباط الجوهرى » ، وكتاب الكرّ على عبد البر . وكان السيوطى قاسياً بنوع خاص على الجوهرى

---

(١) Mittwoch, MSOS, 1900, S. 148 f. .(١)

(٢) Goldziher. Beitr Zur Gesch. d. Sprachgelehrsamkeit bei den Arabern, SWA. phil. hist. Kl. 87, S. 518.

(٣) Goldziher, SWA, 72. S. 687 : Zur Gauhari Literatur.

معاصره (المتوفى عام ٨٨٩ هـ — ١٤٨٤) ؛ فقد أفحش فى الكلام عليه وأتى فيه من الازدراء و إساءة الأدب ما يستحق التعزير عليه[١] .

وكل المعاجم التى عملت بعد الجوهرى هى أشبه بتوسيع وشرح لقاموسه ، وهنا نجد أيضاً — أعنى فى علم اللغة — نهاية عهد قديم و بداية عهد جديد بقى أثره قروناً متطاولة .

وكذلك ظهرت فى القرن الرابع دراسةٌ جدّية للاشتقاق اللغوى ، وبقيت عصراً طويلا ، وكان أستاذ هذه الدراسة ابن جنّى الموصلى (المتوفى عام ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م) . وكانت أمه جارية رومية ، وهو الذى ينسب إليه ابتداع مبحث جديد فى علم اللغة ، وهو المسمى بالاشتقاق الأكبر[٢] ، وهو البحث الذى لا يزال يؤتى ثمره إلى اليوم ، والذى يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ؛ ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا .

وبقيت لغةُ التخاطُب الدارجة إلى جانب لغة الكتابة ؛ وكان الفرق بينهما كبيراً ، حتى نجد المؤرخين يذكرون مع العجب أن يكون فى بغداد فى القرن الثالث الهجرى من يستطيع الكلام الصحيح من غير تكلّف للإعراب ، بل كأن ذلك له كالطبع[٣] .

---

(١) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٤ — ٢٥ من إضافات الناشر الأوروبى .

(٢) Goldziher, SWA, 67, S. 250 نقلا من المزهر للسيوطى (ج ١ ص ١٦٤) . وانظر ج ١ ص ٢٠١ من طبعة مصر سنة ١٣٢٥ هـ . وفى الكتاب الثانى (الفصل الثلاثين) من كتاب الخصائص تناول ابن جنى الكلام فى الاشتقاق الأكبر (انظر O. Rescher, Studien über Ibn Ginni, ZA, 1909, S. 20)

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ١٣١ .

وكان ما ظهر فى الأدب من عناية بالعامّة وبحياتهم مما جعل علماء اللغة يهتمون بدراسة لغة العامة ، وما يعرض فيها من خطأ ، فألّف أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الأندلسى (المتوفى عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م) كتاباً فى لحن العامة ، ثم ألّف ابن خالويه (المتوفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م) بحلب كتاب « ليس فى كلام العرب[1] » . أما ما تُرك لعلماء اللغة وخصوصاً المحدثين فهو موضوع لبحث جديد .

(١) بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى ، طبعة بمربط ١٨٨٤ ص ٥٦ .